(c) www.nidaulhind.com

المهاتما غاندي/لويس ماسينيون: فلسطين في نصّين

نصّ رسالة غاندي الى مارتن بوبير حول أوضاع اليهود في المانيا وفي فلسطين:

لقد تلقيت رسائل مختلفة طلبت مني أن أعرض أفكاري حول المسألة اليهودية ـ العربية في فلسطين، وحول اضطهاد اليهود في ألمانيا. وأشعر بالتردد قبل أن أدلي برأيي حول هذه المسألة الشائكة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن تعاطفي يذهب كلّياً نحو اليهود. وقد توفّرت لي المناسبة للتعرّف عليهم جيداً في افريقيا الجنوبية. وأصبح البعض منهم أصدقاء دائمين لي. وقد أعلموني الكثير عن الاضطهاد الذي تعرّضوا له خلال قرون. إذ كانوا بمثابة طائفة المنبوذين (Les Intouchebles) بالنسبة للمسيحيين، ذلك أن طريقة التعامل معهم من قبل المسيحيين تشبه كثيراً طريقة التعامل التي مارسها الهندوس بحق المنبوذين.

وفي كلتا الحالتين، تم تبرير المعاملات اللاانسانية بالزعم أن الدين يؤيّدها. إنّ تعاطفي مع اليهود ينبع، إذاً، وبغض النظر عن صداقاتي الشخصية، من شعور إنساني أكثر شمولاً. لكنه لا يعمي بصري عن مقتضيات العدل. إن المطالبة بوطن قومي لليهود لا تعجبني تماماً. ومن أجل ذلك يتم البحث عن شرعية هذا الطلب في التوراة وفي المثابرة التي بواسطتها تاق اليهود الى العودة إلى فلسطين.

لماذا لا يجعلون وطنهم، على غرار شعوب اخرى في العالم، في البلد الذي ولدوا فيه وحيث يكسبون معيشتهم؟

فلسطين هي للعرب، كما أن انكلترا هي للانكليز، وفرنسا للفرنسيين، وإنه لخطأ فادح وأمر غير إنساني أن يتم فرض اليهود على العرب فرضاً. إن ما يجري اليوم في فلسطين لا يمكن تبريره

(c) www.nidaulhind.com

باسم أي مبدأ أخلاقي.

الانتدابات إنما نتجت فحسب عن الحرب الاخيرة (العالمية الاولى). وبالتأكيد فإن اذلال كبرياء العرب بإعطاء فلسطين لليهود، كلياً أو جزئياً، بإسم «الوطن القومي»، ستكون بمثابة الجريمة ضد الإنسانية. أليس الأكثر شهامة أن نطلب معاملة اليهود معاملة لائقة حيث ولدوا وترعرعوا؟.. فاليهود الذين ولدوا في فرنسا هم فرنسيون مثلهم كمثل المسيحيين المولودين في فرنسا. واذا لم يكن لليهود وطن سوى فلسطين، فهل يقبلون الفكرة التي تجعلهم مكرهين على ترك الأجزاء الأخرى من العالم التي استقروا فيها؟ أم أنهم يريدون وطناً مزدوجاً حيث يمكنهم البقاء إذا أعجبهم ذلك؟ هذه المطالبة بوطن قومي توفّر حجة مهذّبة لتبرير عملية طرد اليهود من قبل الألمان.

لكن الاضطهادات التي مارسها الألمان ضد اليهود لا يبدو لها مثيل في التاريخ. إن الطغاة في الأزمنة السابقة لم يبلغوا الجنون الذي بلغه هتلر. ذلك إنه يدعو إلى إيمان جديد بقومية مكافحة وحصرية، حيث باسمها يصبح كل فعل بربري فعلاً إنسانياً ينال جزاءه في الحياة الدنيا وفي الآخرة. إن جريمة يرتكبها شاب مختلّ بصورة ظاهرة ولكنه مقدام(*)، تصبح ذريعة لاضطهاد كلّ العرق الذي ينتمي إليه، بوحشية لا يمكن تصورها. وشن حرب ضد ألمانيا، بهدف منع الاضطهاد الإجرامي لعرق كامل، سيكون بالأمكان تبريرها تماما لو أنه توجد حرب عادلة تخاض باسم الإنسانية ومن أجلها. لكنني لا أؤمن بالحرب. وهذا النقاش الرامي إلى وزن إيجابيات وسلبيات مثل هذه الحرب، هو أمر خارج عن اهتماماتي. لكن إذا لم يكن بالامكان اندلاع حرب للنضال ضد جريمة مثل الجريمة المرتكبة حالياً بحق اليهود، فإنه لا يمكن بالتأكيد أن ينشأ تحالف بين أمة تدّعي الدفاع عن الحق وعن الديمقراطية وبين أمة هي العدو الصريح لهذين المبدأين. أم أن انجلترا تسير شيئاً فشيئاً نحو ديكتاتورية مسلحة مع كل ما يرافق ذلك؟

تبرهن ألمانيا للعالم بأي فعالية يمكن استخدام العنف حين لا يكون العنف متكراً بالنفاق أو بالضعف جاعلاً نفسه يمرّ كأنه مشاعر انسانية. كما تبرهن ألمانيا كم هو العنف مقيت، شنيع ومخيف، حين يظهر سافراً وفي وضح النهار.

هل يستطيع اليهود مقاومة هذا الاضطهاد المنظّم والوقح؟ هل يوجد لديهم وسيلة لمحافظ على احترامهم لأنفسهم دون أن يشعروا بأنهم ضحايا للتخلي والاهمال واللامبالاة؟ أعتقد أن الاجابة هي بنعم. فأي كائن انساني يؤمن بإله حي ليس له أن يشعر بأنه متروك ومهمل. ان يهوه، إله اليهود، هو إله أكثر شخصانية من إله المسيحيين، والمسلمين أو الهنود. علماً بأنه في الواقع، وفي

(*) يشير هاندي الى حادثة اغتيال الدبلوماسي الألماني أرنست فوم راث في باريس على يد هيرشل غرينز باند التي إستغلّها النازيون لتنظيم ليلة الكريستال.

(c) www.nidaulhind.com

جوهره، الإله الوحيد المشترك لهم جميعاً، وهو فوق كل وصف. ولكن، بما أن اليهود يشخّصون الله ويعتقدون بانه يوجّه كل عمل من أعمالهم، فإنه لا ينبغي لهم أن يعتبروا أنفسهم متروكين.

لو كنت يهودياً مولوداً في ألمانيا، ويكسب معيشته فيها، لطالبت بأن تكون ألمانيا وطناً لي وعلى قدم المساواة مع أكبر شخص لامع بين الألمان غير اليهود، ولكنت تحديتهم بأن يعدموني رمياً بالرصاص أو أن يزجّوني في السجن، ولكنت قاومت الطرد والمعاملة التمييزية. وما كنت لأنتظر أن ينضم إليّ اخواني في الدين طالما أنني أدافع عن حقوقي المدنية، لكنني كنت تأملت بثقة كاملة أن أرى في النهاية الآخرين يتبعون دون تخلف مثالي. ولو أن يهودياً، أو جميع اليهود، قبلوا هذا الإقتراح، فإن ذلك لن يكون أسوأ بالنسبة له أو إليهم مما هو عليه الآن. والمعاناة المتحمّلة إرادياً سوف تمنحهم قوة داخلية وفرحاً تفوقان بكثير مظاهر التعاطف المنظمة في العالم خارج ألمانيا. حتى ولو أعلنت بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الحرب على ألمانيا.

إن أعمال العنف المحسوبة عند هتلر يمكنها أن تفضي إلى حمّام دم شامل لليهود، علماً بأن هذه الحالة لم تحصل بالنسبة لردّه الأول على مثل هذه الاعتداءات. لكن إذا كان باستطاعة اليهود أن يكونوا مستعدين للقبول إرادياً بالمعاناة، فإن حمام الدم المتوقّع يمكنه أن يتحول إلى يوم للشكر وللفرح، لأن يهوه قرّر أن يضحّي بالعرق حتى لو كان ذلك بواسطة جبّار طاغ.

بالنسبة للإنسان الذي يخشى الله، لا ينبغي أن يكون للموت أي رهبة. وأعتقد أنه سيكون بالكاد ضرورياً أن ألفت النظر إلى أن من السهل على اليهود أكثر من التشيكيين أن ينضمّوا إلى اقتراحي. وأمامهم نظير كامل في حملة «الساتياغراها» التي يقودها الهنود في أفريقيا الجنوبية. فهناك يحتلّ الهنود الموقع ذاته تماماً، الذي يحتلّه اليهود في ألمانيا. ومن عادة الرئيس «كروجر» Krüger أن يقول إن المسيحيين البيض هم أصفياء الله، إن الهنود كائنات دونية خلقت من أجل خدمة البيض. يحتوي دستور بلاد الترنسفال على بند أساسي ينصّ على وجوب عدم المساواة بين البيض وبين الأعراق الملوّنة، بمن فيهم الآسيويون. وهناك أيضاً تم تجميع الهنود في معازل يطلق عليها اسم المستوطنات. والأشكال الأخرى للحرمان من الحقوق كانت عملياً هي نفسها التي أصابت اليهود في ألمانيا. ان حفنة من الهنود فقط لجأت إلى «الساتياغراها» دون أن تحظى بأي دعم في سائر بلدان العالم، أو من قبل الحكومة الهندية. بالطبع، سعى الموظفون البريطانيون إلى تحوير وجهة أنصار الساتياغراها عن مشروعهم، وهَبّ الرأي العام العالمي والحكومة الهندية لمساعدتهم بعد ثماني سنوات من الكفاح، مكتفين بالضغط الدبلوماسي، ولكن من دون التهديد باعلان الحرب.

لكن اليهود في ألمانيا يمكنهم أن يعتمدوا الساتياغراها ضمن شروط أفضل بالتأكيد من شروط الهنود في افريقيا الجنوبية. فاليهود يشكّلون جماعة متراصّة ومتجانسة في ألمانيا. وهم حذقون أكثر بكثير من الهنود في افريقيا الجنوبية، إذ خلفهم يقف الرأي العام العالمي المنظم. أنا مقتنع بأنّ شتاء يأسهم قد يتحول بسرعة الى صيف للأمل، إذا ما قام بينهم إنسان شجاع، وثاقب النظر

(c) www.nidaulhind.com

يقودهم إلى عمل غير عنيف. وما أصبح اليوم مطاردة منحطّة للإنسان يمكنه أن يصبح مقاومة هادئة وثابتة، يقوم بها رجال ونساء غير مسلّحين، ولكنهم يملكون قوة المعاناة التي أعطاهم إياها يهوه. وعندئذٍ، فإن مقاومة دينية بالفعل سوف تتصدى للمجنون الكافر لرجل بربري.

سوف يحقق اليهود الألمان انتصاراً طويل الأمد على الألمان غير اليهود بإرغامهم على احترام الكرامة الانسانية. بل انهم سوف يُسْدُون بذلك خدمة لإخوانهم الألمان، وسيطالبون بحقهم في ان يكونوا ألمانيين حقيقيين، على عكس أولئك الذين يمرّغون اليوم في الوحل كلمة ألمانيّ، ولو كان ذلك بصورة غير واعية.

والآن سأوجه كلامي إلى اليهود الموجودين في فلسطين. أنا مقتنع بأنهم يسلكون طريق الضلال: إن فلسطين الموجودة في التوراة ليست رقعة جغرافية. بل هي قلوبهم. لكن إذا كان ينبغي عليهم أن يعتبروا فلسطين الجغرافية بمثابة وطنهم القومي، فإنه من الخطأ الدخول إليها في ظل المدافع البريطانية. إن العمل الديني لا يمكن له أن ينفذ بواسطة الحراب والقنابل. ولا يمكنهم الإقامة في فلسطين إلاّ بموافقة العرب.

ينبغي عليهم أن يحاولوا استمالة قلوب العرب. فالإله ذاته هو الذي يستحوذ على قلب اليهود والعرب معاً.

ويمكنهم (اليهود) ان يقدموا برهاناً على الساتياغراها بمواجهة العرب، وأن يفتحوا صدورهم لرصاصهم، أو أن يقبلوا بأن يتمّ رميهم في البحر الميت دون إبداء مقاومة. ففي مشاريعهم الدينية سيحصلون على دعم الرأي العام في العالم بأكمله. وهناك ألف طريقة ممكنة للتفاوض عقلانياً مع العرب، على شرط ان يتخلى اليهود عن مساندة الحراب البريطانية. وطالما أنهم لن يفعلوا ذلك، فإنهم سيكونون شركاء البريطانيين في عملية نهب شعب لم يرتكب بحقهم أي أذى.

لويس ماسينيون: فلسطين والسلام في العدل*

إن واحدة من الصعوبات الأساسية التي تعترض تحقيق السلام في العدل على النطاق العالمي هي ايجاد السبيل للمصالحة بين العدالة الجماعية الشاملة وبين الحفاظ على حرية المعتقد. ويبدو

---

* نشرت هذه المقالة في العام ١٩٤٨، في مجلة «الله حي».

(c) www.nidaulhind.com

في أن غاندي قد وجد الرافعة التي تسمح بقلب موازين المسؤولية الجماعية باتجاه الاخلاص الفردي لكل واحد منا. فبواسطة مطالبته المدنية بالحق - او «الساتياغراها» - التي تقوم على التذور الشخصية بالصيام والغفران، حوّل غاندي عملية تصحيح العلاقات الاخوية، التي يكاد يستحيل على الخصم ان يقبل بها، الى تضحية إرادية تستثير الآخر وتزعزع انانيته ونزعة الالحاق لديه. ومن خلال تعميم هذا المنهج في التفاني الاجتماعي، أفهمنا غاندي ان المطلوب ليس التخلي عن التقدم التكنولوجي، بل الاستفادة منه بصورة غير محمومة او متسرعة، وإستخدامه بتأن ودراية. ليست المسألة مسألة تحديد للنسل على الطريقة المالتوسية، التي هي تحريف جانبي للمسألة، بل بنوع من العفة في القصد تُروّض الحياة الحديثة. ينبغي القبول بداهة بأن العالم لا تسيّره الشهوات المادية والقوى الاقتصادية وحدها، وبأن الجماهير تزخر بطاقات روحانية فاعلة، على الرغم من النفاق الشاذ للذين يستغلونها.

سئل غاندي ذات يوم: «لماذا تضعف الديانات ايام الأزمات والحروب، فتضع نفسها في خدمة الحكومات الأقل بُعداً عن الشبهات؟» فأجاب: «لأنها لا تتشبث التشبث الكافي بدورها وبالزهد والتضحيات، ولأن زعماءها المتاجرين بالمقدسات يجدون من البديهي ان يتركوا المستضعفين، هؤلاء «الأسافل» وفق منطق تبشيرهم المتعالي، ضحايا للنهب والسلب». وعلى الرغم من ذلك، يبقى هناك دوماً لون من الاستقطاب للارادات الطيبة يحفظ للمؤمنين الرغبة في الكمال التي توجه انظارهم نحو العتبات المقدسة. وكانت مدينة بنارس من تلك العتبات بالنسبة لغاندي. وقد زرتها في العام ١٩٤٥ لهذا السبب بالذات. غير ان غاندي كان يدرك ان غالبية الشعوب المتحضرة لها عتبات مقدسة اخرى مشتركة بين اسرائيل والنصرانية والاسلام، في الاراضي المقدسة اي فلسطين. وبهذه يتعين علينا ان نفكّر بنوع خاص.

اني أؤمن ايماناً عميقاً ان مآل التاريخ الانساني أن يبني - عبر كل الاخطاء والخطايا والفضائح والجرائم - من مجموع شخصياتنا المكتملة، تلك التي يضعها شغفنا بالحقيقة الشاملة وعطشنا الى العدالة المافوق إنسانية في مركز ذواتنا، فإذا هي لنا عامل التوحيد وسبيل الخلود. هكذا يتحابك عبر الازمنة عدد من خيوط المنعة الروحية لتشكل لحمة نسيج الاحداث المادية للكون. كما اني اؤمن ايمانا عميقا جدا بالتألق الاجتماعي الأصيل للشخصيات الدينية المقدسة، عبر التاريخ وفيما يتعدى الموت، وهم بمثابة العقد التي تشد خيوط المنعة الروحية تلك. ذلك هو حال سيدنا إبراهيم المدفون في الخليل، بالنسبة لقضية فلسطين، وهو الذي رفع ثلاث صلوات مدهشة لاسماعيل واسحق وسدوم! كما هو حال غاندي، ذلك القديس الذي قتل بالأمس، بالنسبة لقضية الهند، وهو الذي صلّى ليس فقط من اجل اخوانه الهنود وانما من اجل المتبوئين والمسلمين ايضا. اعتقد ان مثل هؤلاء الرجال مقدر لهم ان يلهمونا البحث عن مجيء «ملكوت الله»، اي عن السلام في العدل. وأحسب انهم على الصراط المستقيم سائرون ليس في سبيل بلادهم وزمانهم وحسب وانما

(c) www.nidaulhind.com

في سبيل كل زمان ومكان.

قُتِل غاندي الهندوسي بعد صلاة اقامها من اجل إخلاء المساجد الاسلامية التي كان اخوانه قد إحتلوها بالقوة في دلهي، المدينة التي ارادها عاصمة للهند الموحدة. ومات وفيّاً وفاة تاماً لمبدئه ولأمله المنشود في «الساتياغراها». منذ ٢٨ سنة، نشرتُ في «مجلة العالم الاسلامي» الصادرة في باريس، تلخيص غاندي للـ «ساتياغراها». وقد دهشت حين وجدت في تعاليمه مبدأ للعمل الاجتماعي استطيع ان أذكّر به المسلمين المتديّنين وقد تغافلوا عنه كثيرا، أعني به مبدأ «الامر بالمعروف»، وهو الواجب الاجتماعي الذي يقضي بمعاملة الغريب كضيف، «ضيف الله»، وينهى عن الإساءة للاجئين، ويعتبر تحويلهم الى رهائن سياسيين بمثابة الكفر. بهذه الروحية، ساند غاندي منذ العام ١٩١٨ المجموعة الاسلامية المسماة «خدمة الكعبة» التي تأسست للدفاع عن الاماكن الاسلامية المقدسة، مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس، ضد تعديات الاستعمار المسيحي للبريطانيين.

وإذا كانت عواطف غاندي تذهب نحو اليهود نظراً للاضطهادات التي تعرضوا لها (عرفت إمرأة يهودية هي السيدة شيزمان امضت سنوات عدة في ضيافته) فإن هذه الاضطهادات لم تعم بصيرته عن مقتضيات العدالة: «ان فلسطين للعرب تماما مثلما إنكلترا هي للانكليز، واليهود إنما يسلكون طريق الضلال» (١٩٣٨). وتلقاء عام ١٩٤٦ يصرّ على ان الصهيونيين «يرتكبون خطأ فادحا في سعيهم لفرض انفسهم في فلسطين، اولاً بواسطة الدعم الانكلو ـ اميركي، ثم بواسطة الارهاب السافر». كان يريد لليهود ان يتفاهموا مباشرة وبحرية مع العرب تفاهم الند للند. وفي السادس والعشرين من شباط ـ فبراير الفائت، اي بعد مضي شهر على موت غاندي، كنت في جثسيمانيا، جزئيا من اجل إحياء ذكراه، وهي للمسيحيين تاريخيا المصدر الكبير الثاني للقوة الروحية في فلسطين (بل اني اقول انه المصدر الأول في التحليل الاخير). وما كدت اخرج من بستان الزيتون الموشى بأزهار البنفسج حتى وجدت نفسي وسط إشتباك مسلح بين العرب واليهود يخاض بحقد متبادل، حقد يسعّره بدأب في فلسطين، كما في الهند، مسيحيون إستعماريون ـ اي مرتدّون عن دينهم ـ من اجل الحفاظ على الامتيازات الاقتصادية لسلطان المال لدولة اوروبية هي بريطانيا العظمى تحديدا. وذلك بواسطة مخطّط تقسيمي يبتغي تمزيق كلا البلدين (فلسطين والهند).

إن التقسيم مرفوض ـ وأعني به الفصل والتميز بين عنصرين متخاصمين آنياً ـ بحجة ان منطق «إعادة التأطير» الاقليمي سوف يؤدي في نهاية المطاف الى قيام كونفدرالية عالمية للقوميات المتمركزة كل منها داخل حدودها. هذا أمر ناهضه غاندي. والمسلمون الهنود الذين فهموه وأحبوه من العالم عبد المجيد الى العالم الأنصاري وصولا الى رئيس المؤتمر ابو كلام ازد، كانوا يرغبون بتوق شديد الى وحدة الهند، ضد الحزب الانفصالي الباكستاني الذي يتزعمه السيد جناح برعاية

(c) www.nidaulhind.com

السياسة البريطانية. والآن، يعرب ابو الكلام ازد عن رغبته في البقاء في هندوستان كمواطن ينتمي الى أقلية، للعمل من أجل إعادة بناء الوحدة الهندية. في فلسطين أيضا إرتفع عاليا من الجانب اليهودي صوتان يطالبان بالوحدة: فمنذ العام ١٨٩٣ خاطب آحاد هعام إسرائيل قائلا: «لماذا تواصلون مشروع بناء دولة إسرائيل في الأرض المقدسة بدون الدخول في حوار مع اخوانكم العرب المقيمين فيها؟».

ثمت مثل عربي جميل جداً يقول «الجار ثم الدار» وثمت قديسة مسلمة هي رابعة العدوية كانت تطبق هذا المثل على الحياة الاخرى، إذ شغلتها محبة صاحب الجنة أكثر من الجنة ذاتها. فما الفائدة من بناء منزل بواسطة أرقى التقنيات إذا كنا سوف نبنيه وسط جيران يتوجسون من البناء شراً، ونمعن في تجاهلهم بدلاً من السعي لمصالحتهم؟ أعلم تمام العلم، مع الأسف، ان المستوطنين الفرنسيين للجزائر قليلو الرغبة في تطبيق هذا المثل على تعاملهم مع العرب في افريقيا الشمالية، وانهم بإسم حماية النفس من «جامعة للامم العربية» انها يشجعون المشروع الصهيوني في فلسطين، متقادين بضرب من التضامن الاستعماري ضد العرب. ولكن هناك يهود متعطشين للعدل يذكّرون اخوانهم بالخطر الاخلاقي الذي ينطوي عليه موقفهم. وهكذا فإن رئيس الجامعة العبرية في القدس يهودا ماتيس الذي زرته في ٢٦ من شباط - فبراير الماضي يردد ان الوسيلة الوحيدة لاعادة بناء إسرائيل في الارض المقدسة تكمن في إستخدام اساليب طاهرة ومشيعة اخلاقيا، وإلا فإن اله إسرائيل الذي لم يغفر ابدا لقومه وقوعهم مجددا في الشرك، سوف يرمي اليهود في فلسطين بـ «خربان» جديد، اي بكارثة.

أعلم جيدا ان علماء الجغرافية لا يرون في المعضلة الفلسطينية الراهنة سوى صدام بين قوميتين برجوازيتين أساءت الأمم المتحدة التحكيم بينهما، وهي الهيئة التابعة لأصحاب رؤوس الأموال الاستعماريين التي تعتقد أنها تستطيع المحافظة على مذاق السلام بين البشر بالتلويح بالقذائف النووية. وهذا لأمر شنيع تماما وقابل لأن يوردنا موارد الهلاك. ففي مقابل مستفيدين كبيرين إثنين، محاطين بطائفة من الطفيليات الثانويين يتعيشون عليهما الى هذا الحد او ذاك، هناك طرف ثالث هو مراقب ثاقب النظر وماكر يتربّص منتظرا تحلل «روحانية» الديمقراطيات الغربية في هذه الارض المقدسة التي يليق بها ان تكون لا غنيمة يتقاسمها اصحاب الامتيازات بل الدثار القشيب للوئام العالمي او منطقة تلاقٍ بين البشر أجمعين. وبادىء ذي بدء بين الذين لديهم من الاسباب للتآلف اكثر من اسباب التباغض وأعني بهم الساميين من ابناء ابراهيم يهود وعربا، ونصارى ايضا لأن اولئك ساميون في الروح إن لم يكن في الانحدار. فيتعين عليهم جميعا ان يطرحوا جانبا عبادة الاصنام التي لن تستجلب لهم غير الجرائم العبثية. وكما كان يقول غاندي «ما الجدوى من جريمة إغتيال طالما ان الروح حية لا تموت؟».

قبدلاً من بلقنة العلاقات الدولية علينا الاعتراف انه اذا كان ثمت من بلد ينبغي للزمني فيه

(c) www.nidaulhind.com

ان يخضع للروحي من اجل تحقيق ما تصبو اليه من وحدة عالمية، فهذا البلد هو بالتأكيد فلسطين. وان الموضع الوحيد الذي قضى التاريخ بأن يكون نقطة تدخل للروحي في الزمني وفي الجغرافي انما هو الاراضي المقدسة، بما فيها القدس، منذ ايام ابراهيم. وليس يتعلق الامر هنا بمقاطعة فيديرالية مستقبلية محض إدارية من مقاطعات هيئة الامم المتحدة، او ما هو افضل من ذلك، بمركز دولي للاونيسكو، وانما يتعلق الامر بجاذب مغناطيسي للرغبة في السلام وللصلاة من اجل العدل تكون القدس قطبه.

وقد آن الأوان لنبيّن كيف حافظ اليهود، على الرغم من مراوغات التاريخ الظاهرية، على شوقهم الروحي نحو الاراضي المقدسة بصفتها رهناً مادياً لوعد يتعالى على المادة. فبواسطة التوراة، ابلغ اليهود العالم اجمع ان الخلاص سوف يأتي عن طريقهم، وانه في سبيل ذلك الخلاص إستدْعِيَوْا وابراهيم خارج بلد الكنعانيين، وان إبراهيم وذريته قد وهبوا هذا البلد الى ابد الابدين. لسنا نملك فعلاً إلا ما قد تخلّينا عنه مادياً في الحياة الدنيا. ان اسرائيل الحقيقية هي ثمرة تضحية إسحق. ولم يعد إسحق إلى والده عائدا إلا لأن والده قدمه للتضحية، ولم تكن الأجيال اللاحقة لتعرف إسحق لولا انه إرتضى تلك التضحية بصمت. وعلى الغرار ذاته، فقد جرى التدريب البطيء لابنائه على العودة الى الاراضي المقدسة بروحية التكفير والدموع التي تدعو لها شعائرهم الدينية، هي روحية إبراهيم. فإذا ميلهم الالفي الى المنفى والى التعرّض للاحتقار الذي إستشعره إشعيا وأتت المزامير على ذكره قد دفع الى العودة الخاشعة الى فلسطين بحاخامين، اصوليين او كارائيتيين Caraites، معظمهم من السفارديم الاندلسيين او المغاربة من تلامذة كبار رجال العلم اليهود ممن عرف إستخدام اللغة العربية كأداة للتفكير التقني من امثال بهيا وابن ميمون وعالم النحو يهودا بن قريش الذين مهّدوا لازدهار ادب يهودي في الاراضي المقدسة هو الادب اليهودي ـ العربي، والى هؤلاء اضيف ايرانيون قادمون من بخارى ودربند وعرب يمانيون. ونعرف عنهم مواظبتهم على زيارة حائط المبكى عبر الاجيال لا تعبيرا عن يأس بل تمسكاً بأمل أبدي.

لكن، خلال القرن التاسع عشر ظهر النفوذ الاوروبي بين اليهود العائدين الى فلسطين مستهدفاً نزع الطابع الرسولي عن املهم، وعلمنة ذاك الامل وإرسائه على «قواعد إقتصادية». وقد تم ذلك أول الأمر عن طريق محسن بريطاني هو السيد مونتيفيوري (١٨٦٩) المسؤول عن مشروع تجميع المهاجرين في القطاعين الشمالي والغربي من القدس القديمة. وكانت لجان الدهاقنة (اليهود) المتحرّقين لا الى العودة هم انفسهم «في العام القادم الى اورشليم»، بل الى ان يرسلوا اليها بإخوانهم من الفقراء والمضطهدين، كانت هذه اللجان في اساس كل الاستعمار اليهودي اللاحق لفلسطين، بمساهمة البارون ادمون دي روتشايلد والـ «آي. سي. آي» وآل بريث وكيرين هايسود. ومن جهة اخرى، فابتداء من العام ١٨٨٢، بدأ تجنيد الكتلة المهاجرة اليهودية في اوساط يهود البلاد السلافية المهددين بالمجازر العنصرية. فلم يعد هؤلاء المهاجرون من السفارديم

(c) www.nidaulhind.com

المستعربين بل من الاشكناز الجرمانيين، الناطقين بالـ «يديش» وهم على طرفي نقيض بالقياس الى العقلية الشرقية الفلسطينية. منذ العام ١٩١٢ كان احد اصدقائي الاتراك، قائم مقام غزة، يحدثني عن «النزعة اللااجتماعية» والانعزال المتعمد للوافدين الجدد. إذ كانت تلك الجاليات تعتبر كأنها في ارض بكر، فترفض التسجيل في قيود النفوس الرسمية، فيما النساء يُحرّمن على انفسهن شراء الحلي اذا لم يجدن صائغا يهوديا يبيعها.

بالتأكيد كان اولئك المهاجرون الجدد روّاداً شجعان ومستصلحي اراض دؤوبين، ولكنهم حملوا معهم كل مناخ الاستعمار، إضافة الى التعنت الذي غالباً ما يطبع المهاجر الذي دفعته احقاد الاخرين الى مغادرة بلاده. فإذا العودة الى الارض بمثابة العلاج ضد اليأس، حسبما كان يعتقد هرتزل، بمنأى عن اي إستدعاء للعون الرباني. وهذا ما يفسر الحرم الذي القاه الحاخامون الاصوليون ضد الصهيونية في بازل سنة ١٨٩٧، وولادة نزعة العنصرية الارهابية التي تدعو اليها وتمارسها منظمتا الايرغون وشتيرن على غرار جابوتينسكي. اما في حالة قائد رفيع المستوى مثل وايزمان تحركه عبادة الموتى (هؤلاء الذين قرب سيلوى، كما كان يقول لي) لغياب الايمان المعتقدي لديه، فالمصلحة الوحيدة من تحقيق التوازن تجاه عرب فلسطين هي مصلحة إقتصادية. وحدهم أناس من مثل آريل بنسيون، بسبب من تصوفه، ول. بيلنغ، لأنه مستعرب، و ج. ماتيس، بسبب من تحسسه الفطري بالعدالة، عبّروا لي عن رغبتهم العميقة في حصول تفاهم مخلص بين اليهود والعرب. فقد إعتمدت الصهيونية لتحقيق اهدافها على الوسائل الدنيوية، وهذا ما كان ماتيس يعتبره، توراتياً، بمثابة «الشرك» او «عبادة الاوثان» الذي سوف يتسبب لا محالة بالكوارث.

كان العرب يتطلعون هم ايضاً الى تلك الارض «المعمورة» التي نفي منها البدوي واليها يعود كل الصيف ليرعى قطعانه. وعرف الاسلام ذاك التطلع على شكل حلم راود النبي قبل عام من الهجرة عندما تراءى له انه محمول خلال الليل الى القدس ومنها الى السماء. وقد دفعه ذلك المعراج الى اعتماد الشمال - اي القدس - قبلة للصلاة خلال ستة عشر شهراً. واذا عاد النبي فجعل القبلة جنوباً بإتجاه مكة، فمن اجل إحياء ذكرى سيدنا ابراهيم سلفه الاول المدفون في الخليل، التي وعد بأن يسلمها الى تميم الداري. ولكن النبي توفي قبل فتح فلسطين على الرغم من تجريد حملتين لهذا الغرض. على ان جده هاشم كان مدفوناً في غزة. وقد دخل ثاني الخلفاء عمر في القدس سنة ٦٣٨ فأضحتْ فلسطين عربية منذ ذاك، ليس فقط بسبب من الحزبين القيسي واليمني اللذين كانا يتقاسمان القرى فيها، وانما ايضا بسبب من تدفق المسلمين من كل حدب وصوب ليقودوا حياة تعبّد في الاراضي المقدسة، في الرملة (ابو هاشم)، وسيلوي (الخرميون الافغان)، وبيسان (ال عبدل)، وعكة (الشاذلية)، والقدس (دراويش بركة سهيلة والهنود والاتراك من الوقف الخاصكي والتلمسانيون من وقف البراق). وفي العام ١٩١٦، اعلن عرب الحجاز إنضمامهم للحلفاء لانهم

(c) www.nidaulhind.com

تلقّوا وعداً بالاستقلال العربي لفلسطين وسورية. واني اتذكر غضبة لورانس وهو الى جانبي في السيارة خلال الدخول الاحتفالي الى القدس يوم ١١ كانون الأول - ديسمبر ١٩١٧، عندما حدس بوجود وعد بلفور يصدد «الوطن القومي لليهود». وبعد عشرين عاما من المراوغات البريطانية، إنتفض العرب في العام ١٩٣٦، وكان القمع البريطاني شرساً في بعض الأمكنة مثل الناصرة وجنين ونعيم. بعدها، ادركت بريطانيا العظمى انها قد ذهبت بعيداً في ترجيحها لكفة الصهاينة، وتبعاً للكتاب الابيض الذي صدر سنة ١٩٣٩، اوقفت الهجرة اليهودية التي كانت قد بلغت عشرة اضعاف عدد اليهود من سكان فلسطين الاصليين (خمسون الف يهودي) في مقابل مليون من العرب الفلسطينيين (عشرهم من المسيحيين منذ الف وثلاثمائة سنة). فتصلب الموقف العربي تجاه اليهود وأخذت السياسة البريطانية تغذيه بمثل ما غذّت التصلّب اليهودي. وفيما عدا بعض المسلمين الهنود ورجل مصري هو م. س. عرفاتي، وبعض الاتراك من امثال عمر فوزي ماردين ومجموعة اولكن، فانني لست اعرف عرباً يأملون في صلحة عربية - يهودية في الاراضي المقدسة.

كان يمكن لتلك الصلحة ان تأتي على يد طرف ثالث هو السطرف المسيحي. على ان الامبراطورية البيزنطية كانت قد ورثت نزعة العداء الوثني لليهودية، الى حد عدم إحترام انقاض الهيكل، الذي اعاد الخليفة عمر ترميمه (مسجد قبة الصخرة). فإبان الحكم الاسلامي، كانت الاقلية المسيحية معترفاً بها، ولكنها غالباً ما كانت معرضة للاذلال. ولم يكن بوسعها سوى ان تستقبل الرهبان والحجاج الذين يقتفون خطى سيد الحياة الكاملة في الاراضي المقدسة. اما بالنسبة للمسيحيين الاجانب، فإن الحروب الصليبية قد استنفرتهم لطرد «ابناء هاجر» وتجديد الغزوات على طريقة يهوشع، بعد حلول عيد العنصرة، غزوات سرعان ما لاقوا عاقبتها إذ اخذوا يتذابحون على الغنائم. وقد تجرأوا حتى على اطلاق اسم «الحملة الصليبية» على عملية النهب الشنيع التي شنّها لاتينيون من بيزنطة الاغريقية سنة ١٢٠٤. ثم اخذوا يتنازعون على حراسة اماكن الحج المقدسة، مستخدمين الاموال لذلك. وقد بقيت اسرتان مسيحيتان عربيتان متواضعتان، واحدة في الجليل حول الناصرة، والثانية في الجنوب حول بيت لحم والقدس تنافحان على شرف المسيحية. وبقيت حركة مستمرة للمسيحيين الاجانب من كافة الطوائف ممن نذروا انفسهم للحياة الكاملة، يؤمون الاراضي المقدسة للتأمل والتعبد في الاديرة والصوامع، ويواصلون بذلك نشر الايمان في بلادهم ذاتها، كبلاد النوبة والحبشة وجيورجيا وارمينيا. ان الاراضي المقدسة للمسيحيين بمثابة المصيف الاثري، بل انها وطن النفوس حتى قبل الموت، ويتعين على أحبارهم، بل على رئيس احبارهم، ان يعود يوما الى كرسيه في القدس.

في تلك الاثناء، كانت السياسة «المسيحية» الاوروبية تدّنس فكرة الحملة الصليبية بواسطة الجشع الاقتصادي، والابغال في الردة. ومع مطلع إستعمار القارة الاميركية التي قصدها كولومبس بحثا عن الذهب لتمويل الحملات الصليبية، حلت المسيحية محل الاسلام في تجارة الرقيق الواسعة

(c) www.nidaulhind.com

النطاق من أجل الاستغلال التقني للمزارع والمناجم. وإذا مركز كبريات الشركات المالية، حيث كان مُفتون للذمم من اليهود ينافسون شركاءهم (المسلمين ثم المسيحيين) في التواطؤ لقاء شيكات يحررها لهم اصحاب المصارف، يتنقلون من بغداد والقاهرة الى لشبونة ثم امستردام ولندن ونيويورك. وما زالت تلك الشركات ناشطة ليس من اجل تجارة الرقيق بل من اجل البترول، وهي التي توجه، على الرغم من الخلافات الظاهرية، السياسة الاستعمارية الانكلو ـ اميركية من اجل إستغلال ثروات الشرق الادنى، وتدير النزاع العربي ـ اليهودي الذي تجني منه الفوائد الجمة. وفي هذه اللحظة بالذات، تسعى بريطانيا العظمى لاسترداد جزء من ال ٨٣ بالمئة من الحصص في نفط البحرين التي تخلت عنها للولايات المتحدة سنة ١٩٤٢. ولهذا نجد بريطانيا تسلح العرب وهي تتفاهم في الوقت ذاته مع «الهاغاناه» من اجل الاستيلاء على مصافي حيفا.

ولكن لكي يدرك اليهود والعرب انهم مجرد اوراق تتلاعب بها قوى اخرى، ينبغي ان يتحرروا أولاً من النظام الاقتصادي الاوروبي الذي يخضعون له، وهذا ما تدعوهم اليه السياسة السوفييتية؛ او ان يدركوا ان تجاورهم في الشرق الادنى يوثق من عرى التضامن في مواجهة مفاسد النظام الاستعماري بديلا عن التباغض، او ان يكتشفوا ان الجاذبية الروحية التي حَدَت بهم الى البحث في الاراضي المقدسة عن «وطن مختار» تمكنهم من التلاقي في وحدة روحية اسمى.

ومن بين الاطراف الثلاثة الساعية لاستيطان الاراضي المقدسة ـ اليهود والمسيحيين والمسلمين ـ يقع على اليهود النصيب الاكبر من التضحية. لانهم يطمحون الى الاستئثار بمفردهم بتلك الارض، رمز اسرائيل الروحي الذي تدعو التوراة والمزامير سائر الاعراق اليها. اضف الى هذا ان الشرعية الابراهيمية للاسلام لم يعترف بها من اليهود سوى ابن ميمون، وان تبنّيهم للمسيحيين يبقى امراً مشكوكاً به ما دام اليهود لم يوضحوا لانفسهم وللاخرين حقيقة الولادة البتولية للمسيح.

في الانتظار، يتعين على طبقة المزارعين بين المستوطنين اليهود ان تعيش حياة سلمية صافية الذهن كالتي يبشر بها غاندي، وان لا تلجأ للتصنيع المتسارع والمحموم الذي يجعلها لا تُحْتَمَلُ من قبل جيرانها. ثم ان اعتماد التأني والدراية في إستخدام التقنيات لا يمكن تصوّره دون عودة اسرائيل الى ممارسة الشعائر الدينية وهي عودة ليست مستحيلة.

لنعترف ايضا ان السياسة الفلسطينية واقعة الان تحت سيطرة المساومات البشعة، تتخللها الحروب الدامية بين الحين والاخر. ولا بد من مراجعة خريطة التقسيم الحالية التي يستحيل العيش في ظلها، حيث صحراء النقب في الجنوب الغربي، والجليل في الشمال الغربي منطقتان مهددتان بنوع خاص. اني اعترف منطقة الجليل وهي منطقة عربية خالصة ببلداتها الكبيرة ذات الأبهة البطريركية، ولكنها فقيرة الى حد بعيد، وهي بلدات سنية ودرزية او مسيحية: البصة وشفا عمرو بالقرب من عكا وعبلين وفاقا والرينة والناصرة. ان قرية عبلّين هي مسقط رأس قديسة كرملية

(c) www.nidaulhind.com

عربية تدعى مريم بواردي يتضرع اليها مسيحيو هذه المنطقة بحرارة خلال عذاباتهم الحالية. فيما الناصرة موطن عذراء اخرى يهودية الاصل لا حد لتواضعها وعظمتها هي ام الشعب المسيحي، القديسة الكاملة القداسة للشرق المسيحي بل والاسلامي ايضا، والنبع المختوم الذي لا تزال إسرائيل المرتابة تجهل سرها. ان كهف البشارة في الناصرة هو نبع آخر من ينابيع القوة الروحية عند المسيحيين، وهناك قام شارل دي فوكو بتعليمي التأمل. فذلك الكهف هو رمز سلامة النوايا النسالية في السعي الفكري، والحفر الماني»، في إستكشاف الحقيقة الذي تحدثت عنه في البداية.

لا. لا يمكن للناصرة ان تكون موضع مقايضة. ينبغي ان تبقى للذين يفهمون سرها ويحترمونه.

يوم ١٧ حزيران، قلت في قاعة محاضرات «ديكارات»: أتذكّر النذر لسيدة لوريت Notre-Dame de Lorette، اي سيدة الناصرة، الذي قطعه ديكارت عندما إكتشف إكتشافه في التحليل الرياضي. بصفتي دكتوراً في السوربون يؤمن بتواصل الشهادة المسيحية المطلوب من فرنسا ان تؤديها امام العالم، اتذكّر قَسَم اليمين لدكاترة السوربون منذ العام ١٣٨٠: «ان نداقع عن شرف تلك التي حَمَلها بلا دنس هو نبع خلاصنا». بتفكير مماثل يتبغي علينا ان نواجه الدور العالمي المستقبلي للاراضي المقدسة، حيث يجب ان يسود السلام في العدل. واني إذ استعيد هذا النذر من السوربون القديمة بصيغته التوارتية الحرفية كما علمتنا اياه إسرائيل: «فلتبتر يميني اذا نسيتك يوما يا اورشليم المقدسة»، «يا وطنا فوق كل الاوطان، واما فوق كل الامهات»، فإني ادافع عن الشرف البتولي لأمي، لأمنا جميعا، وهو ايضا الشرف الأسمى لاسرائيل الذي عنه ادافع لانها ولدت يهودية، مع ان إسرائيل لا تزال غافلة عن ذلك».

ملحوظة:

ما كدت انتهي من كتابة هذه الصفحات، حتى جرى احتلال الناصرة بالقوة يوم ١٧ تموز - يوليو. وفي عددها الصادر يوم ٢٣ منه، تحدثت صحيفة «تيمواناج كريتيان» (الشهادة المسيحية) عن هذا الحادث الخطير الذي إرتكب «من اجل تعزيز الموقع التفاوضي لمبادلة الجليل بالنقب مع الدول النفطية المتحكمة بهيئة الامم المتحدة»، ووضعت الارهاب الصهيوني امام مسؤولياته التي لا مفر منها عن تدنيس ذلك المكان المقدس بين الامكنة، حيث اعلنت البشارة بمسيح اسرائيل. على ان القبول بمقايضة الجليل بالنقب، بعد القبول بالتقسيم، لم ينقذ ذلك المنافع عن السلام القائم على التنازلات المتبادلة، فوقع الكونت برنادوت، الوسيط الأعزل من السلاح المفوض من قبل ٤٨ أمة في مهمته في الاراضي المقدسة، صريع رصاصات منظمة شتيرن. والان، لم يعد يقتصر الامر على إستبعاد الناصرة من منطقة مراقبة «اللجنة الدولية للاراضي المقدسة» بل تعداه الى العمل من اجل حل اللجنة ذاتها. وفي تلك الاثناء ها ان ٤٠٠ ألف مشرد عربي فلسطيني، بينهم العديد من مسيحيي الجليل، قد زجوا في معسكرات إعتقال على الحدود.

وجه الحزب اليهودي «ايحود» Ihud نداء نبيلا الى ضمير إسرائيل، صدر في نيويورك عن

(c) www.nidaulhind.com

رئيسه الدكتور يهودا ل. ماتيس بتاريخ ٢١ آب (اغسطس) جاء فيه: «ينبغي السماح للعرب الذين فرّوا خارج (دولة) إسرائيل بأن يعودوا الى منازلهم دونما تحديد لمهلة زمنية. لا يجوز إطلاقا معاملة اللاجئين على انهم رهائن سياسية. وانه لأمر مستهجن، بل اكاد ان اقول انه يفوق التصور، وبعد كل ما تعرض له اليهود في اوروبا، ان تولد قضية تشريد (العرب) في الاماكن المقدسة» (من اجل إسكان اليهود المشردين من اوروبا). على ان هذا النداء لم يلق آذاناً صاغية.

هل سنحصل على «التسامح» تجاه المسيحية في الجليل الذي هو مهد المسيحية؟ هل سيتم إنقاذ الناصرة قبل فوات الاوان بواسطة إنتفاضة حياء بَنَوية من لدن كنائسها المشتتة؟ واذا كان الارثوذكس والكاثوليك، ومعهم المسلمون، يسجّلون طهارة السيدة العذراء المختارة بين النساء في الناصرة، فإن العديد غيرهم مستعدون للتكيّف مع الشك المرتاب، إن لم نقل المعادي، للحاخامين تجاهها.

ان العالم لن يعرف السلام في العدل، في فلسطين او في غيرها، ما دامت إسرائيل لم تعد النظر في قضية أم يسوع. ولست اشير هنا الى العديد من الافتراءات الفظة في «سفر تولدوت يهوشع» (كما في اصداته التلمودية) بقدر ما اشير الى الحكم الشرعي للجماعة اليهودية في الناصرة (لتتذكر «مشمار كوهينيم» التي اقدمت، حتى قبل باركوشيامل، على شطب إسم الأب الشرعي ليسوع («فلان») من قيود الانساب («ميغيللوت جوشاسين») وإضافة حاشية تقول «ابن زانية» حسبما ورد عند الحاخام شمعون بار عازاي. ان هذا الحكم القانوني يتعين على وعي إسرائيل ان يكسره اذا كانت تطمح الى الانبعاث.

ترجمة وإعداد:

حسن الشامي